المحاضرة الرابعة :

الرّسالة الجدّيّة لابن زيدون :

قال ابن زيدون وهو في سجنه مستعطفاً أبا الحزم ابن جهور :

" يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتمادي عليه، واعتدادي به، وامتدادي منه، أبقاكَ اللهُ ماضيَ حدّ العزم، واري زند الأمل، ثابت عهد النعمة، إن سلبتني _ أعزّك الله _ لباس إنعامك ، وعطّلتني من حَلْي إيناسك، وأظمأتني إلى برود إسعافك، ونفضت بي كفّ حياطتك، وغضضت عني طرف حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصم ثنائي عليك، فلا غرو قد يغصّ بالماء شاربه، ويقتل الدواء المستشفَى به، ويُؤتى الحَذِرُ من مأمنه ،وتكون منية المتمنّي في أمنيته، والحَينُ قد يسبق جهد الحريص:

كلّ المصائب قد تمرّ على الفتى وتهونُ غير شماتة الحسّادِ

وإني لأتجلّد وأُري الشامتين أني لريب الدهر لا أتضعضع، فأقول: هل أنا إلا يدٌ أدماها سوارها، وجبينٌ عضّه إكليله، ومشرفيّ ألصقه بالأرض صاقلُهُ، وسَمْهِريٌّ عرّضه على النار مثقّفه ؟ .... ، هذا العتبُ محمود عواقبه، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليلٍ تقشّعُ،....، ولكلّ أجل كتاب .

فإنْ يَكُنِ الفعلُ الذي ساء واحداً فأفعالُه اللائي سَرَرْنَ ألوفُ

وأعود فأقول : ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك؟ ولا أخلو من أن أكون بريئاً فأين العدل؟ أو مسيئاً فأين الفضل؟ حنانيك قد بلغ السيلُ الزُّبَى، ونالني ما حسبي به وكفى،وما أُراني إلا لو أني أُمرتُ بالسجود لآدم فأبيتُ واستكبرتُ، وقال لي نوحٌ: اركب معنا، فقلتُ : (سآوي إلى جبل يعصمني من الماء)، وأمرتُ ببناء الصَّرْح لعلّي أطلعُ إلى إله موسى....، وقُدتُ الفيلَ

لأبرهة ، ....،وعاهدتُ قريشاً على ما في الصحيفة ،وتأوّلتُ في بيعة العقبة، ونفرتُ إلى العِير ببدرٍ ،وانخذلتُ بثلث الناس يوم أحد ..... فكيفَ ولا ذنب إلا نميمة أهداها كاشح ، ونبأ جاء به فاسق ؟ فما هذه البراءة ممن يتولاك، والميل عمّن يميل إليك؟

يا من يعزُّ علينا أن نفارقكم وجداننا كلّ شيء بعدكم عدمُ

وإنما أبسستُ لك لتدرَّ، وحرّكتُ لك الحوار لتحنّ، ومتى أعذرتَ في فكّ أسري لم يتعذّر، وعلمكَ محيط بأن المعروف ثمرة النعمة ، والشفاعة زكاة المروءة .... لعلي ألقي العصا بذراك، وتستقرّ بي النوى في ظلك، فلا أوجد للحاسد مجال لحظة ، ولا أدع للقادح مساغ لفظة، والله شهيدك من إطلابي بهذه الطلبة .... حسبما أنت خليق له، وأنا منك حري به ، فذلك بيدك ، وهيّن عليك ".

مناسبة النص:

ابن زيدون هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومي القرطبي، ولد في قرطبة عام /٣٩٤هـ/ وتوفي بإشبيلية عام /٤٦٣هـ/ ، وكان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة. ولمّا قامت الفتن في أواخر حكم الأمويين أسهم فيها ،إذ كان هواه مع الثائرين ،ومن أجل ذلك قرّبه أبو الحزم ابن جهور أمير قرطبة، وسلّمه منصب الوزارة والكتابة، لذلك سُمّي بذي الوزارتين السيف والقلم، إلا أنّ هذه المكانة لم تدم له طويلاً، إذ نُسبت إليه مؤامرة على الأمير،جعلته أبا الحزم يسجنه، فكتب هذه الرسالة من سجنه مستعطفاً ابن جهور.

وتعدّ هذه الرسالة من عيون أدب المراسلات بما تختزنه من قيم معرفية وثقافية كبرى ، وهي من عيون الرسائل الأدبية في الأندلس.

وسُمّيت بالجدّية لتمييزها من رسالة أخرى كتبها ابن زيدون في السخرية من منافسه في حبّ ولادة بنت المستكفي (ابن عبدوس) ، والتي سُمّيت بالرسالة الهزلية، وكانت شديدة الوقع على منافسه في الهجاء والسخرية.

أفكار الرسالة :

بنى ابن زيدون رسالته على :

١) تبرئة نفسه من التهمة الموجّهة إليه مؤكّداً أنها مجرّد وشاية من حاسد .
٢) تُصوّر الرسالة الجدية حالة الكاتب النفسية ، ومعاناته من الزمن، والأعداء ، والحسّاد.
٣) الرسالة وثيقة الصلة بحياة ابن زيدون السياسية التي لم يبلغ هدفه منها.
٤) حشد ابن زيدون كثيراً من الإشارات التاريخية والأمثال والقصص بغية استدرار عطف ابن جهور لإخراجه من السجن .
٥) أكّد ابن زيدون إصراره على الرجوع إلى سابق عهده مع ابن جهور.
٦) ختمَ ابن زيدون رسالته بقصيدة شعرية يمدح فيها ابن جهور ويستعطفه.

تحليل النص:

لقد اجتمع لابن زيدون فضل التربّع على قمّة الشعر، ومزيّة تملّك ذروة النثر ، فهو واحد من قلّة قليلة من أعلام العربية جمعوا بين الإبداع في قول الشعر ،والإمتاع في إنشاء النثر.

من أبرز الظواهر الأسلوبية في النص :

- **أولاً : التناص:**

يُعدّ التناص مؤسّساً لفضاء النص الأدبي، ورافداً له بطاقات إيحائية دلالية كثيرة من خلال رؤية الكاتب واستثماراته لطاقاته الثقافية المخزونة، وتوظيف هذا المخزون في خدمة النص الجديد، وتتعدّد رسائل التناص تبعاً لمخزون المبدع وتوظيفه لعناصر التراث داخل بنية النص .

ومن هذه العناصر التي اتّكأ عليها ابن زيدون في نصه :

التناص مع القرآن الكريم :

مثَّلَ القرآن الكريم مادّةً غنيّةً في رسالة ابن زيدون، وأكسبها رونقاً جماليّاً وفنّيّاً ،من خلال الجزئيّات والفنيات البنائيّة الجديدة التي أودعها التّأثير القرآني في نثره ، فتلاحقت الأفكار داخل رسالة ابن زيدون من خلال توظيف القرآن الكريم، ممّا ساعدَ على آليات التجديد،حيث التّحّول من المعنى، ثمّ الارتداد إليه مرّة ثانية.

ومن أمثلة تناصه مع القرآن الكريم قوله :(ولِكُلِّ أَجَلٍ كِتاب).

" ولِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ " لفظُ القرآن الكريم ، والأَجَلُ مُدَّة الشيء، ومعناه : لكلِّ شيء أجلٌ مكتوب ، وأوقاتٌ مَحْدودة.

ويتابع ابن زيدون الغوص في مخزونه الثقافي ليُطالعنا باقتباس قرآني آخر في قوله : (فكيفَ ولا ذنبَ إلَّا نَمِيمةٌ أهْداهَا كَاشِحٌ ، ونَبَأٌ جَاءَ بِهِ فاسِقٌ ؟) مستفيداً من قوله تعالى:" يا أيّها الذين آمنوا إِنْ جَاءكُمْ فاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أنْ تُصِيبُوا قَوْماً بجهَالَةٍ فَتُصْبِحوا على ما فَعَلْتُمْ نادِمِين ".

أراد ابن زيدون من خلال اقتباسه القرآني أن يُوجّه أبا الحزم لضرورة التأكّد من أقوال الوشاة عملاً بمضمون الآية الكريمة ، علّه يفكّ أسره، وينقذه من محبسه.

ويُحيلنا قول ابن زيدون:(وَأَمَرْتُ بِبِنَاءِ الصَّرْحِ لَعَلِّي أَطَّلِعُ إلى إله مُوسى) .

إلى قوله تعالى: " وقالَ فِرْعَوْنُ : يا أيُّها المَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلـهٍ غَيْرِي، فَأَوْقِـدْ لِي ياهَامَانُ على الطِّينِ فاجْعَلْ لي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إلى إلهِ مُوسى وإنّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبين ".

لقد استشاطت نفس ابن زيدون غضباً، فأيّ ذنب عظيم ذاك الذي اقترفته يداه ؟إنه يتوسّل و يُناجي ويسترحم ،فلا يلقى إلَّا مزيداً من الذّلّ والقسوة والجفاء .

فما كان منه إلَّا أن تمثّل بشخصية فرعون حين أمر هامان أن يبني له صرحاً ، لينظر إلى إله موسى ،هادفاً من وراء توظيفه الآية الكريمة إلى عقدِ مقارنةٍ بينه وبين ذاك الفرعون الذي طغى وتجبّر وتعدّى على الله تعالى، فأيّهما أعظم ذنباً؟ وهل يستحقُّ كلّ هذا العقاب بسبب نميمة واشٍ ؟ هذا غيض من فيض توظيف ابن زيدون للقرآن الكريم في رسالته الجدية، فقد غاصَ في بحر القرآن الكريم ، واستقى منه ما شاء من ألفاظٍ، ووظّفها في رسالته ،بطريقةٍ تتناسق مع قدرته اللغويّة، وقريحته الفذّة الّتي تحدّى بها العرب،والّتي استطاع من خلالها إظهار مقدرته الشعريّة واللغويّة والبيانيّة.

التناص مع التاريخ :

يُعدُّ التاريخ منبعاً ثرّاً من منابع الإلهام الشعري عند ابن زيدون ، يعكس من خلال الارتداد إليه روح العصر ، ويُعيدُ بناء الماضي وفق رؤية إنسانية جديدة ، تكشف عن همومه ومعاناته وطموحه وأحلامه ، مما يعني أن الماضي يعيش في الحاضر ، ويرتبط معه بعلاقة جدلية تعتمد على التأثير والتأثر.

ومما استقاه ابن زيدون من التاريخ ما نجده في قوله في رسالته الجدّية:(وعاهدتُ قريشاً على ما في الصحيفةِ) .

يُحيلنا ابن زيدون إلى الصحيفة التي كتبتها قريش أوائل الدعوة حين رأت أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين هاجروا إلى الحبشة قد نزلوا بلداً ،وأصابوا قدراً وأمناً،وأنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أسلم، وأصبح من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام، وزاد حنقهم وغضبهم حين بدأ الإسلام يتفشى بين القبائل ،فاجتمع كفار قريش ،واتفقوا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب، على ألا يَنْكِحوا إليهم ولا يُنكِحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم ،حتى يُسلّموا إليهم النبي صلى الله عليه وسلم . وكتبوا كتابهم في صحيفة ، و تواثقوا وتعاهدوا على ذلك ،ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة ....

لقد ساق ابن زيدون حادثة الصحيفة ليُدل من خلالها على أن ذلك الظلم الذي ألحقه به ابن جهور يوحي بأنه اقترف جريرةً لا تغتفر مثل جريرة مَنْ تعهّدوا لقريش بما في الصحيفة التي كتبوها من مقاطعة أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكان توظيف هذه الحادثة التاريخية رافداً مهماً أصاب ابن زيدون من خلاله غايته التي رمى إليها.

ويسترسل شاعرنا في سوق الوقائع التاريخية قائلاً :

(وتَأَوَّلْتُ في بيعة العَقَبَةِ)،(ونفرتُ إلى العِيْرِ ببدرٍ،)،(وانخذلتُ بِثُلْثِ النَّاس يومَ أُحُدٍ)،(وروّيت رُمحي من كتيبة خالدٍ)....

وهكذا نلمسُ مقدار ما كان يتمتع به ابن زيدون من ثقافةٍ تاريخيةٍ عريضةٍ، ساعدته على أن يستخدم كثيراً من الإحالات لأشخاص وأيام وأحداث لها دلالاتها في أذهان الناس، ولها رصيدٌ من القدرة على تحريك المشاعر بتذكّر الأيام الذهبية الخالية، مما أكسبَ أدبه عمقاً وكفاءةً في إيصال ما يبغي من دلالاتٍ للمتلقي.

التناص مع الشعر :

منَ الطبيعي لهذا الشاعر الذي اختبر أوتار القيثارة العربية أدقّ اختبار، واستمع إلى شدوها ونغماتها أرهف استماع ،أن يشتدَّ تأثره بمن سبقوه ،وأن يستعير منهم في الحين بعد الحين ،وخاصةً أن هذا الصنيع كان ضريبةً مفروضة على الشعراء الذين تقدّموه جميعاً ،لاعند المغمورين منهم ،بل عند أفذاذهم،كالبحتري ،وأبي نواس، وأبي تمّام،والمتنبي.

إن التوظيف الشعري يعد ضرورةً ملحةً ومطلباً فنياً ، فهويشكل لبنةً عضويةً من شأنها أن تسهم في بناء النص الأدبي والإضافة إليه، وهذا الأمر كان حاضراً في ذهن ابن زيدون ، فانطلق يرتشف من معين الشعر ما يحلو له، يقول في رسالته الجدية:(وبأن غلبني المغلب،وفخر علي العاجز الضعيف).

استعان ابن زيدون ببيت الشاعر امرئ القيس الذي يقول فيه :

وإنك لم يفخر عليك كفاخرٍ ضعيفٍ ، و لم يغلبك مثل مغلبِ

ويتابع ابن زيدون النّهلَ من بحر الشعر،قائلاً في رسالته الجدية :

(وإني لأتجلّد ،وأري الشامتين أني لريب الدهر لا أتضعضع).

لقد نثر ابن زيدون في سطور رسالته بيتاً من الأبيات السيّارة التي حملت جوهراً مشرقياً خالداً،وهو للشاعر أبي ذويب الهُذَلي في رثاء أولاده:

وتجلدي للشامتين أريــهم أني لريب الدهر لا أتضعضعُ

ونجده يستلهم من شعر البحتري ما يُسْعِفُ فكرته، فيقول:(ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك ؟ والجهل الذي لم يأت من ورائه حلمك ؟...و لا أخلو من أن أكون بريئاً ، فأين العدل ؟ أو مسيئاً ، فأين الفضل ؟

إلا يكن ذنب فعدلك واســع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع)

وهذا البيت للبحتري في مدح الخليفة المتوكل وعتابه من قصيدة مطلعها :

شوق إليك تفيض منه الأدمع وجوىً عليك تضيق عنه الأضلع

وفي موضع آخر من الرسالة يستضيء بشعر المتنبي، فيُلقي بهالته على نثره ،يقول:(بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصم ثنائي عليك)، مشيراً بهذا إلى قول المتنبي :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

التناص مع الأمثال :

وظف ابن زيدون الأمثال بطريقةٍ إيحائيةٍ، فهو لم يقصدها بدلالتها المباشرة، وإنما استغل ناتجها في تكثيف المعنى،علّها تُلامس شِغاف قلب أبي الحزم، فيستثير حنانه، ويستنهض همته، فيستفيق من غفوته ، وينتشل ابن زيدون من نكبته، فيرسل سحاب عطفه مدراراً، ويصل رحم الجوار بعد القطيعة، ويقرّ عيناً أضرّها سهاد الجفوة.

يقول :(حنانيك، قد بلغ السيل الزبى ، ونالني ما حسبي به وكفى).

وهنا يزاوج الشاعر بين مثلين:

المثل الأول: (بلغ السيل الزبى)،الزبى:جمع زبية،وهي حفرة تحفر للأسد إذا أرادوا صيده، و أصلها الرابية لا يعلوها الماء،فإذا بلغها السيل،كان جارفاً مجحفاً، يضرب لما جاوز الحد.

والمثل الثاني (حسبك من شرً سماعه):أي اكتف من الشر بسماعه و لاتُعاينه ، ويجوز أن يكون المراد : يكفيك سماع الشر، وإن لم تقدم عليه ولم تنسب إليه.

وتتوالى درر الأمثال التي يجود بها ابن زيدون في خطابه لأبي الحزم ، يقول:(أعيذك ونفسي من أن أشيم خلبا، وأستمطر جهاماً، وأكدم في غير

مكدمٍ،.... فما أبسست لك إلا لتدر، وما حركت لك الحوار إلا لتحن، وما نبهتك إلا لأنام....).

يستدعي الشاعر في قوله عقداً من الأمثال،أولها المثل المشهور:(كدمت غير مكدمٍ): يضرب لمن يطلب شيئاً في غير مطلبه .

وثانيها: (الإيناس قبل الإبساس) : يضرب في المداراة عند الطلب.

وثالثها: (حرك لها حوارها تحن): " الحُوار: ولد الناقة، والجمع القليل : أحورة، والكثير حوران وحيران ، ولا يزال حواراً حتى يُفصل ، فإذا فصل فهو فصيل . ومعنى المثل: ذكِّره بعض أشجانه يهج لها.

و رابعها: (نبِّه لها عمراً ثم نم) : يضرب فيمن يعتمد على غيره .

لم يأت الكاتب بالأمثال كما هي،وإنما تصرَّف فيها بقدر ما أتاح له السياق، بإجراء بعض التحوير عليها ،مع المحافظة على أصل ألفاظها، لتتناسب مع نصه دلالة وإيقاعاً وانسجاماً .

- **ثانياً: الالتفاف أو (العدول):**

يعدّ الالتفاف من أساليب الكلام، حيث ينتقل الكاتب من ضمير إلى آخر مُنبّهاً المتلقي بهدف إثارة انتباهه، وكسر رتابة السياق في القول،وقد لجأ ابن زيدون إلى ذلك في الرسالة ، كقوله : (فأقول ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك؟)،وفي قوله : (وقال لي نوح :اركب معنا، فقلت سآوي إلى جبل يعصمني من الماء)،فهذا التفاف من ضمير المخاطب (اركب) إلى ضمير المتكلم في (سآوي).

- **ثالثاً: التقديم والتأخير:**

لجأ إليه الكاتب للتخصيص مثل قوله : (ودادي له، اعتدادي به، اعتمادي عليه)،(أني لريب الدهر لا أتضعضع).

- **رابعاً: السجع:**

اعتمد عليه ابن زيدون مع التوازن في العبارات الذي أضفى على الرسالة جرساً موسيقياً متناظراً أسهم في توهّج الانفعالات التي سيطرت على الكاتب، ومن أمثلته: (حياطتك ، غضبك، حمايتك، بريئاً، مسيئاً) .

إنَّ اعتماده على السجع جاء في مواضع كثيرة من رسالته ، باستثناء ذلك الموضع الذي انطلق فيه يُصوّر لابن جهور أنه لم يرتكب جرماً كبيراً مستشهداً بما مضى من جناياتٍ وأحداث في الديانات ، نحو قوله : " وقال لي نوح : اركب معنا،..... وزعمت أنَّ بيعة أبي بكرٍ كانت فلتة "،فقد انفلت ابن زيدون من عقال السجع، لأّنه لا يستقيم وما يريد أن يروي من هذه الأحداث ، وهي أحداث لا يفهمها إلا مَنْ قرأ سير الأنبياء ، والسيرة النبوية خاصة.

- **خامساً:الإطناب:**

لجأ الكاتب إلى الإطناب لإيضاح المعنى والتعبير عن المعاني المزدوجة في ذهنه. ومن أبواب الإطناب في رسالته:التكرار في المعاني والألفاظ والجمل المعترضة وامتداد العبارة، نحو : (يا مولاي وسيدي) كلاهما بمعنى واحد . ومن أبواب الإطناب تكرار الاستفهام :(ماهذا الذنب؟)(ماهذه البراءة؟)، وهو مناسب لهدف الرسالة.وجاء الاستفهام مصحوباً بالاستنكار، وهذا يدل على حدّة الكاتب وانفعاله نتيجة الظلم الذي وقع على عاتقه، وجاء ليحمل المخاطب على العفو والصفح .

- **خامساً:الاعتراض:**

نحو :عبارة (أعزّك الله) التي أفادت الدعاء، وجاءت لتنبيه المخاطب، وهناك جمل كثيرة معترضة في النص، حشدها الكاتب مع كثير من الجمل المعطوفة بين فعل الشرط وجوابه.

الخاتمة :

إنَّ هذه الرسالة على شهرتها ، واحتفاء الأدباء بها ، وإفراد صلاح الدين الصفدي مجلّداً كاملاً لشرحها أسماه "تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون" ، تُعدُّ امتداداً لمدرسة بديع الزمان الهمذاني من حيث السجع والجناس،والتلاعب بالألفاظ،والاستشهاد بالشعر،وتضمين الأمثال، غير أنَّ ثمّة فرقاً واضحاً بين الأسلوبين والشخصيتين ،فأسلوب ابن زيدون _ وإن كان يجري في المضمار ذاته _ إلا أنه أكثر إشباعاً ، كما أنّ معانيه أكثر عمقاً، ولعلَّ هاتين الظاهرتين تُظهران لنا الفرق بين شخصية بديع الزمان الأكثر ميلاً إلى الخفّة،وشخصية ابن زيدون الرزينة الحكيمة الآخذة من معين الثقافة بأكثر مما أخذ بديع الزمان ، غير أنه من اليسير على قارئ بعض رسائل ابن زيدون أن يرى شبح بديع الزمان الهمذاني متخفّياً وراءها، قابعاً خلف ساحتها .